

بين الرفاعي وشاكر.. دراسة نصية نحوية فصول الأخبار - الجزء الثاني -

١٥ / محمد جمال صقر جامعة القاهرة

حضور الأعلام

[7] أدار الرفاعي أحداث نصه على ثمانية عشر علما من أعلام العقيدة والسلطان والزهد والعز والعلم والذل⁴⁰ . وأدار شاكر أحداث نصه على سبعة عشر علما من أعلام العقيدة والزهد والسلطان والحرية والغزل والفتوة والعدل والهمة والعز⁴¹ .

وإذا كان تعريفاً بعض النحويين للعلم بأنه " ما وُضِعَ لِشَيْءٍ بِعَيْنِهِ غَيْرَ مُتَنَاوِلٍ غَيْرِهِ بِوَضْعٍ وَاحِدٍ " ⁴² ، واضح العلاقة بمعنى " العلامة " المعجمي الوارد فيه - فمكانة العلم في نصي الرفاعي وشاكر، أعلق بمعنييه هذين المعجميين ⁴³ :

1 " شيء يُنْصَبُ فِي الْفُلُوكَاتِ تَهْتَدِي بِهِ الضَّالَّةُ "

2 " الراية التي تجتمع إليها الجُندُ " .

فلم يرد الرفاعي وشاكر حين أدارا على تلك الأعلام أحداث نصيهما ، إلا أن ينصبا منارات على طرق المتلقين المسافرين ، ورايات أمام جيوش المتلقين المجاهدين ، ينتبهون بها ، ويقيسون أنفسهم إليها ، حتى يعيشوا هذه الحياة الواحدة ، كراماً عزازاً .

إننا إذا تأملنا ببيان الثقافة العربية الإسلامية - ومثلها سائر الثقافات - وجدنا العقيدة قلبه - فهي التي تحرك الإنسان العربي المسلم إلى علومه ومعارفه وخبراته وأفعاله وأقواله وإقراراته - ثم وجدنا السلطان مظهره .

وهم من الأوهام ، حتى شاعت في الثقافة العربية الإسلامية عبارة " إِنَّ اللَّهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ " ، ثم وجدنا الزُّهْدَ منهج الثقافة العربية الإسلامية في الجمع بين العقيدة والسلطان ، حتى شاعت عبارة السؤال والجواب " قِيلَ : مَنْ الْمُلُوكُ ؟ قَالَ : الزُّهَادُ " .

ولقد اجتمع كاتبانا على ضرورة تثقيف المتلقين : فتحريا استعمال أعلام العقيدة والسلطان والزهد ، تحريا واحدا : فكانت عند كل منهما 75% : وهو تطابق عجيب ، لا يكون إلا عن مدرسة واحدة ، فيها الأستاذ والتلميذ !

ولكن في خلال ذلك كانت أعلام العقيدة عند الرفاعي 25% ، وأعلام السلطان 25% ، وأعلام الزهد 24% - على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر 42% ، وأعلام السلطان 13% ، وأعلام الزهد 19% : فعلى حين تطابقت عند الرفاعي أولا منزلتا أعلام العقيدة والسلطان ، فَتَلَّتْهَا قريبا منزلة أعلام الزهد - ظهرت عند شاكر أولا منزلة أعلام العقيدة ، ثم تلتها بعيدا منزلة أعلام الزهد ، فتلتها منزلة أعلام السلطان . ربما كانت في ذلك دلالة على تطور رأي التلميذ قليلا بعد اختبار رأي الأستاذ في مدرسة الحياة التي أمامه : فلقد كانت مجموعة مقالات الرفاعي " وحي القلم " ، في العقد التالي لسقوط الخلافة ، وفيه بقي الناس متعلقين برجوعها ، حتى عقدوا الأموال على من لا يستحق ، من مثل كمال أتاتورك : فربما كان ذلك وراء تطابق منزلتي العقيدة والسلطان عند الرفاعي ، حتى إذا ما جاء شاكر بعد ذلك ، وانكشف خداع أتاتورك الذي لم ينج منه كثير من العلماء الكبار ، حتى الشيخ محمد وكيل الأزهر ، أبو شاكر - لم يستثره ما استثار أستاذه ، وارتاح إلى تصحيح العقيدة ، وإلى منهج الجمع بين العقيدة والسلطان من قبل تولي السلطة .

وكذلك كانت أعلام العقيدة عند الرافعي ، اسما واحدا ، وأعلام السلطان أربعة أسماء ، وأعلام الزهد خمسة أسماء - على حين صارت أعلام العقيدة عند شاكر خمسة أسماء ، وأعلام السلطان اسمين اثنين ، وأعلام الزهد اسمين اثنين .

ربما كان أحد الأسماء أكثر استعمالا أو أغلب ، ولكن لا ريب في أن إكثار الأسماء من سياسة الدعوة والحرص على المعنى ؛ فلذا كانت أعلام العقيدة عند شاكر أكثر من أعلام غيرها : فربما احتاج الناس إلى قرآن يمشي على الأرض فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان صحابته - رضي الله عنهم - على حين لم ينتبه الرافعي لذلك المعنى السياسي الدعوي .

ولكن في خلال ذلك غلبت أفكار الزهد (العفة والجلد والصبر على رسالتي النصين ، بعد ما طار في أرجائهما نفس كريم من أخلاق الزاهدين العالية ، فكان الرافعي أحضى في الأعلام بذلك من شاكر ؛ إذ أدار أحداث نصه على خمسة من أعلام الزهاد ، ولم يدرها شاكر إلا على علمين اثنين فقط .

صَوْنُ الْكَاتِبِينَ

[8] إذا كان نص الرافعي موعظة قصصية نسبها إلى أبي علي ، ونص شاكر رسالة قصصية نسبها إلى أبي الخطاب ، وقمت في مقام المطلع على موعظة الواعظ ورسالة المرسل كليهما ، رأيت نص شاكر أكثر ملاءمة لطبيعة الرسالة من ملاءمة نص الرافعي لطبيعة الموعظة .

لقد كان شاكر كأنه وقع على كتاب " مذكرات عمر بن أبي ربيعة " حقا ؛ فأسرع ينقل منه دون أن يضيف إليه إلا عبارة " قال عمر بن أبي ربيعة " التي صدق بها الرسول - صلى الله عليه وسلم -

بطبيعة نص شاكر: فتكلم هو من دون أن يشبه عمر بن أبي ربيعة اشتراكاً ولا استماعاً، حتى استولى على الفصلين الأول والثالث كليهما وعلى نصف الفصل الرابع، فإذا أراد أن يُنطِقَ الواعظ عاد بجملته " قال أبو علي"، وإذا استطال كلام الواعظ نفسه زاد فعل القول الماضي " قال" على مثل ما نجد في مجلسيات الأصفهاني بـ " الأغاني" مثلاً: فبـ " قال" هذا، كان القدماء يبهون المتلقين على استمرار كلام الراوي.

لقد كتب الرافعي نصوص هذا الأسلوب التي منها نصنا، في عقده السادس الأخير (1930 - 1937 م) 44، وكان في شيخوخته، وكتب شاكر نصوص الأسلوب نفسه التي منها نصنا، في عقده الرابع (1939 - 1949) 45، وكان في شبابه: فكأنما أراد شاكر أن يكفكف من شأو نفسه، ويخرجها من البين: فقد ظهر الرافعي بصوته العالي، مظهر معلّم المتلقين الذي يشرح لهم رأيه هو ومذهبه، وكأنه صوت الحقيقة المطلقة، قد حضرت تشهد!

ثم لا ريب في ملاءمة شاكر لتيار الواقعية الغالب على عصره آنذاك، بتحري إخراج القصة من الحياة كما تكون فيها، ثم على طريقة المذكرات التي لا ينقضي عجبني من قبول شاكر أن يستعملها في تنويع أعماله، وليست مما رأيناه يحبه، ولو عُرِضَتْ عليه في أواخر عمره لجعلها من رقاعات المتأخرين!

تفصيلُ الفصول

[9] أفرد الكاتبان عدد فصول النصين (سبعة فصول)، وكأنما حرصا على منهج التدوير الجدير بشدة التأثير: فمهما تَشَعَّبَتْ أفكار رسالة النص: وتَفَصَّلَتْ بها الفصول، تَلَأَقَتْ في فصل يغلق دائرتها ويحكم

اتفق الكاتبان على أن يَنَاتِيَا إلى المتلقين ، بمفهوم الموت في الثقافة

العربية الإسلامية : فمنذ أوصى سيدنا أبو بكر ، سيدنا خالد بن الوليد - رضي الله عنهما ١ - حين بعثه إلى المرتدين ، وصيته الجليلة الخالدة : " اَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تَوَهَّبْ لَكَ الْحَيَاةَ " ، فَعَمِلَ بِهَا ، حتى قال في موته مقالته الجليلة الخالدة : " لَقَدْ لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ رَمِيَّةٌ ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ حَتْفًا أَنْضِي كَمَا يَمُوتُ الْعَيْرُ ؛ فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ " - جرى مجراه القائد العربي المسلم ، حتى كان يفتح عقول الملوك قبل فتح بلادهم ، بمقالته الجليلة الخالدة : " جِئْتُكُمْ بِجُنْدٍ يُحِبُّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ " ١

لقد تَلَبَّسَتِ الكاتبين حالُ القائد العربي المسلم ، نَفْسُهَا : فأقبلًا يحيطان نصيهما بدائرة من الموت محكمة :

أما الرافعي فقد عَرَضَ بَطْلَهُ للافتراس في الفصل الأخير ، ولم يُفْتَرَسْ ، ولكنه أفاض في مقام موته في الفصل الأول : فجعل الفصل الأول نتيجة الفصل الأخير : فلو لم يفهم البطل حقيقة حياته ما فهم الناس حقيقة موته ، ولبقي متلقو النص ينتظرون أن تؤديهم القصة إلى موته ١ ولقد اتفقت بين الفصلين الأول والأخير ، عبارتا الكاتب عن دهشة الناس من حياة البطل ومن وفاته جميعا : فإذا تأملنا قوله من الفصل الأخير : " جَعَلَ كُلُّ مَنْ يَظُنُّ ظَنًّا فِي تَفْكِيرِهِ : فَمِنْ قَائِلٍ (...) وَقَائِلٍ (...) وَثَابِتٍ يَقُولُ (...) وَزَعَمَ جَمَاعَةٌ (...) " .

وقوله من الفصل الأول :

" كَانَ يَوْمُهُ (...) : مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا اقْتَنَعَ أَنَّهُ فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ وَأَبَاطِيلِهَا كَالْأَعْمَى فِي سَوْءِ تَمْيِيزِهِ بَيْنَ لَوْنِ الثَّرَابِ وَلَوْنِ الدَّقِيقِ " .

رأينا الشهود فيهما يفكرون في كل وجه إلا الحقيقة . وربما كان

من ملاءمة كل عبارة لفصلها ، أن تكون عبارة الفصل الأمل ، من ملاءمة

إجمال ما قبلها ، وعبارة الفصل الأخير ، من إجمال تفصيل ما بعدها : فقد كان فصل القصة الأخير مبتدأ حياة البطل الحقيقية ، وفصلها الأول منتهاها !

وأما شاكر فقد بدأ نصه بمصيبة موت ابن البطل ، ثم لم يطلعه عليها إلا في الفصل الأخير : فكان مثل الرافعي في جعل الأول للمتلقين خاتمة الأخير . ولقد اتفقت كذلك بين الفصلين الأول والأخير ، عبارتا الكاتب عن أثر مصيبة الموت : فإذا تأملنا قوله عن عمر بن أبي ربيعة ، في الفصل الأخير :

" قَدْ غَلَبَتْني عَيْناي بالبُكاء "

وقوله عنه في الفصل الأول :

" كَأَنَّمَا فَارَقْتَنِي الرُّوحُ " .

رأيناه في الفصلين وهو من الشهود ، مفعولا به ، مغلوبا على أمره : تغلبه عيناه أخيرا ، وتغلبه روحه أولا ! وربما كان من ملاءمة كل عبارة لفصلها ، أن يكون فاعل عبارة الفصل الأول باطنيا " الروح " ، وفاعل عبارة الفصل الأخير ظاهريا " عيناى " : فقد كانت الوطأة في الفصل الأول على عمر بن أبي ربيعة الراوية نفسه ، وفي الفصل الأخير على غيره !

ترتيب الفصول

[10] ومن باب الحرص على منهج التدوير السابق ، أن جعل الرافعي في فصل " تعريض البطل للافتراس " ، أفدح الأحداث (الحدثان) ، وأشدّها تأثيرا في المتلقين ، ثم جعله سابعا خاتمة الفصول وأكبرها ، وصعد إليه بها قليلا قليلا :

الفصل الثالث	230 كلمة كتابية
الفصل الرابع	194 كلمة كتابية
الفصل الخامس	248 كلمة كتابية
الفصل السادس	498 كلمة كتابية
الفصل السابع	521 كلمة كتابية

442

فإن بدت أطوالها مضطربة ، ففي كون ثالثها بمنزلة التعليق على ثانيها ، ورابعها بمنزلة المقدمة لخامسها ، ما يوضح تصاعدها .
وجعل شاكر في فصل " قطع رجل البطل " ، أفدح الأحداث (الحداث) كذلك ، وأشدها تأثيرا في المتلقين ، ثم جعله رابعا واسطة الفصول السبعة وأكبرها ، من قبله ثلاثة ومن بعده ثلاثة ، وصعد إليه بما قبله ، ثم صعد مرة أخرى بما بعده إلى حدث آخر على جهة مضاعفة المصائب :

الفصل الأول	149 كلمة كتابية
الفصل الثاني	304 كلمة كتابية
الفصل الثالث	396 كلمة كتابية
الفصل الرابع	408 كلمة كتابية
الفصل الخامس	148 كلمة كتابية
الفصل السادس	209 كلمة كتابية
الفصل السابع	266 كلمة كتابية

من دون أن يكون الفصل الأخير (فصل الحدث الزائد) ، أطول من الفصل الرابع (فصل الحداث) ، على رغم ما فيه من مضاعفة المصائب :
فإن مصيبة الموت أزلية أبدية . ثم إن المتلقين كانوا قد عرفوا مصيبة الموت

تحرك على طبيعته : فصعد إلى مجتمع المصائب عند البطل ، مثلما صعد له عند المتلقين .

نَسْجُ النَّصِّينِ

[11] كان فصل الرافي الأول نظرة خارجية كلية ، ربط فيها المنتهى بالمبتدأ ، لم يجد من شخوص قصته من ينظر هذه النظرة ، فنظرها لهم ، قائلاً :

" جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّوْدْبَادِيُّ الْبَغْدَادِيُّ فِي مَجْلِسٍ وَعَظَّهُ بِمَصْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ شَيْخِهِ أَبِي الْحَسَنِ بُنَانَ الْحَمَّالِ الزَّاهِدِ الْوَاسِطِيِّ شَيْخِ الدِّيَارِ الْمَصْرِيَّةِ " .

ثم كان فصل شاكر الأول كلمة داخلية مجملة ، أنطق بها أحد شخوص قصته ، قائلاً :

" ... فَبَادَرْتُ أَعْدُو يَكَادُ يَنْشَقُّ عَلَيَّ جِلْدِي مِنْ شِدَّةِ الْعَدُوِّ " .

جملة أول فصل الرافي الأول ، فعلية ماضوية هادئة مطمئنة ، مُفَصَّلٌ نَسَبُ فاعلها تَفْصِيلٌ كُتِبَ الْأَنْسَابُ ، محتاج قارئها إلى تمهل كثير ، نبه بها المتلقي على معنى المدرسة السابق ذكره . وجملة أول فصل شاكر الأول ، محذوفة في جمل كثيرة سَتُشْرَحُ في الفصل الثاني ، مَدْلُولٌ عليها بفاء عطف الجملة الثانية الفعلية الماضوية النائرة القلقة ، ألقى بحذفها المتلقي في مجرى الأحداث .

وإن في هذا وذاك ، لعلامة أولية مهمة ، على مَنْهَجِي نَسْجِ النَّصِّينِ :

1 الاستبطان المثالي الصَّوْفِيُّ : منهج من الإمعان في تتبع دقائق الصفات الكامنة في العناصر القصصية ، يتحرك حركة عمودية

2 الاستبطان الواقعي الفني : منهج من الإمعان في تتبع دقائق

الصفات الظاهرة على العناصر القصصية ، يتحرك حركة أفقية من وراء إلى أمام ، ومن أمام إلى وراء ، دواليك .

فعل حين يسلك الرفاعي المنهج الأول : فيطول الجمل ، ويثقلها ، ويقللها ، ويشغلها بتحليل الأشخاص والأحداث - يسلك شاكر المنهج الأخير : فيقصر الجمل ، ويخففها ، ويكثرها ، ويشغلها بتحريك الأشخاص والأحداث .

توصيل الفصول

[12] إذا تأملنا مفاصل الفصول ، حيث يخييط كل من الكاتبين

أطرافها ، فيضم أول اللاحق إلى آخر السابق ، وجدنا ما يلي :

1 جملة أول فصل الرفاعي الثاني معطوفة على جملة أول نصه ، كرر

فيها اسم فاعلها بعد ما طال ما بين الموضعين من كلام الكاتب الطارئ بينهما :

" جَلَسَ أَبُو عَلِيٍّ (...) وَتَكَلَّمَ أَبُو عَلِيٍّ (...) " .

وجملة أول فصل شاكر الثاني معطوفة على جملة آخر فصله الأول :

" سَأَلَنِي (...) قُلْتُ (...) " .

فعلى حين عبر شاكر عن ثورة عمر بترتيب جملة قوله على جملة

سؤاله من دون أن يتيح للفاء بينهما مكانا : إذ ليس أقدر على تحريك

الأحداث من حذف العاطف ، وليس أكثر حذفاً بين الجمل من فاء العطف

بين جمل الأقوال 46 - عبر الرفاعي عن هدوء راويته أبي علي بعطف

جملة تكلمه على جملة جلوسه بالواو دون ترتيب وكان تكلمه كصمته ،

تمهيدا للمعنى الذي سينطقه به في الفصل الرابع ، قائلا :

"عَلَامَةُ الرَّجُلِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَعْمَلَ وَجُودَهُ فَيَمُنَ حَوْلَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ هُوَ بِنَفْسِهِ".

2 وجملة أول فصل الرافعي الثالث اسمية اعتراضية مقترنة بواو :
 "وَالْبَلَدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (...) هُوَ فِي الْجَهْلِ كَالْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ (...)" .

وجملة أول فصل شاكر الثالث فعلية ماضوية معطوفة على جملة أول فصله الثاني :

"قُلْتُ (...) قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (...)".

فعلى حين يستمر تعبیر شاكر عن ثورة الأحداث ، باستثقال فاء الترتيب والتعقيب نفسها ، يعترض الرافعي بكلامه كلام راويته أبي علي ، إمعاناً في غلغلتيه فيه ، توسعاً في التحليل .

3 وجملة أول فصل الرافعي الرابع فعلية ماضوية زائدة :

"قَالَ أَبُو عَلِيٍّ (...)".

وجملة أول فصل شاكر الرابع اسمية منسوخة بـ "كاد" :

"فَمَا كِدْنَا نَقُومُ (...)".

فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة التي يصلون بها كلام المتحدث بعضه ببعضه على رغم الاستطراد ، وكان كلامه من كلام أبي علي ، يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه ترتيباً سريعاً ، ولا يملك أن يحذف العاطف لعدم الدلالة عليه ، كما كان يحذفه لدلالة كثرة الاستعمال عليه : فليست الجملتان المتعاطفتان هنا قوليتين ، كما كانتا هناك .

وجملة أول فصل الرافعي الخامس هي الفعلية الماضوية الزائدة نفسها :

وجملة أول فصل شاكر الخامس فعلية ماضوية :

"وَمَا لَيْثُنَا (...) "

فعلى حين يستعمل الرافعي زيادة رواة المجالس القديمة نفسها، ولكن في أصل موضعها؛ إذ يصل كلام أبي علي بعضه ببعضه على رغم استطراده - يرتب شاكر أول الفصل على آخر سابقه من دون الفاء ولا "ثم"؛ إذ هو مطمئن إلى فهم معنى الترتيب من منطلق الأحداث، ثم هو لم يشأ أن يحدد زمان ما بين غشية البطل وإفاقته، وإن أوحى بالتركيب إلى أن حوار ما بين أبي الحكم وأمير المؤمنين، قد أمر الوقت من دون أن يتبين له تحديداً .

4وجملة أول فصل الرافعي السادس اسمية منسوخة بـ "كان" :

"كَانَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ مِنْ جَارِيَةِ تُرْكِيَّةٍ " .

ابتدائية في أول تفصيل مفعول جملة آخر الفصل الخامس، المُجْمَل :

" قَالَ : تَعَالِ ، أَحَدْتُكَ الْحَدِيثَ : كَانَ أَحْمَدُ (...) " .

وجملة أول فصل شاكر السادس فعلية مضارعية :

"فَيَلْتَفِتُ الرَّجُلُ إِلَى عُرْوَةٍ " .

معطوفة على جملة آخر الفصل الخامس :

" فيقول له (...) فيلتنفت (...) " .

فعلى حين يُفَصِّلُ الرافعي المفعول به، ويطول الجملة تطويلا

تحليليا، يؤرخ به تطور خصيم البطل النفسي - يقصر شاكر الجملة، ويغير الأشخاص، ويحرك الأحداث .

5وجملة أول فصل الرافعي السابع، فعلية ماضوية زائدة بين أجزاء

اعتراض كبير، بعضه في آخر الفصل السادس، وبعضه في أول الفصل

السابع :

" فَأَمَرَ (...) - (...) قَالَ (...) - فَجِئَ (...) " .

وجملة أول فصل شاكر السابع فعلية ماضوية معطوفة بالفاء على جملة آخر فصله السادس الفعلية الماضوية :

" قُلْتُ: (...) ثُمَّ مَضَيْتُ (...) " .

فعلى حين يغفل الرافعي الفصل الأخير في الذي قبله ، يحركه شاكر حركة جديدة واضحة ، ويحدد ترتيبه .

لا ريب في أن غَلْغَلَة الفصل في الفصل تَوْسِيعاً لِإِطَارِ السَّابِقِ لِيَشْتَمَلَ اللاحق - أَثَرُ وَاضِحٍ مِنْ أَثَارِ انْتِهَاجِ الرَّافِعِيِّ مِنْهَجِ الْاسْتِبْطَانِ الْمَثَالِيِّ الصَّوْفِيِّ . ثم لا ريب في أن تَحْدِيدَ حُدُودِ الْفُصُولِ وَإِسْرَاعَ الْأَحْدَاثِ ، أَثَرُ وَاضِحٍ كَذَلِكَ مِنْ أَثَارِ انْتِهَاجِ شَاكِرٍ مِنْهَجِ الْاسْتِبْطَانِ الْوَاقِعِيِّ الْفَنِيِّ .

رَبْطُ الْأَنْوَالِ

[13] إِذَا تَبَعْنَا عِنْدَ الرَّافِعِيِّ أَوَّخَرَ جُمْلَةٍ مَا قَبْلَ أَفْعَالِ الْقَوْلِ وَأَوَّالِ

جمل ما بعدها ، وجدنا هذه العبارات :

- 1 " جَاءَهُ كِتَابٌ (...) قَالَ : فَجَعَلْتُ (...) " .
التي عَطَفَ فِيهَا جُمْلَةً " جَعَلْتُ (...) " بالفاء . على جملة " جَاءَهُ (...) " ، وکلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير .
- 2 " هُوَ الَّذِي كَانَ (...) قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَقَدِمْتُ (...) " .
التي عطف فيها جملة " قَدِمْتُ (...) " بالواو ، على جملة " هُوَ الَّذِي كَانَ (...) " ، وکلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير .
- 3 " لَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا (...) قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَهَمَمْتُ (...) " .
التي عطف فيها جملة " هَمَمْتُ (...) " بالواو ، على جملة " لَمَّا لَقِيْتُهُ لَقِيتُ رَجُلًا (...) " ، وکلتاهما من كلام أبي علي الراوي الكبير .
- 4 " قَالَ : لَوْ (...) قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : وَالْمُعْجَزَاتُ (...) " .
التي استأنف فيها جملة " الْمُعْجَزَاتُ (...) " بالواو ، عن جملة " قَالَ : لَوْ (...) " ، وهما من كلام السطل ، والأخيرة من كلام أبي علي الراوي الكبير .

5 " لَمَّا بَلَغَ هُوْلَاءِ كَانَتْ نَيْتُهُ (...) قَالَ : وَكَانَ عَقْلُهُ (...) " .

التي عطف فيها جملة " كَانَ عَقْلُهُ (...) " بالواو ، على جملة " (...) كَانَتْ نَيْتُهُ (...) " ، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير .

6 " أَمَرَ (...) - قَالَ : وَكُنْتُ (...) - فَجِئَ (...) " .

التي عطف فيها جملة " جِئَ (...) " بالفاء ، على جملة " أَمَرَ (...) " ، واعترض بينهما بجملة " كنت (...) " المقترنة بالواو ، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير .

7 " لَوْ أَنَّ خَطْرَةَ (...) قَالَ : وَأَنْصَرَفْنَا (...) " .

التي عطف فيها جملة " أَنْصَرَفْنَا (...) " بالواو ، على جملة لو أَنَّ خطرة (...) " ، وكلتاها من كلام الدينوري الراوي الصغير .

• وإذا تأملنا أشباهها عند شاكر كذلك ، وجدنا هذه العبارات :

1 " قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ : (...) فَبَادَرْتُ (...) " .

التي عَطَفَ فِيهَا جُمْلَةً " بَادَرْتُ (...) " ، على جملة محذوفة ، وكلتاها من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد .

2 " قَالَ : بَلَى (...) قَالَ (...) : فَهُوَ (...) " .

التي استأنف فيها جملة " هُوَ (...) " بالفاء ، عن جملة " بَلَى " الباقية منها أداة الجواب ، وأولاهما من كلام سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه 1 - والأخيرة من كلام رسول الله ، صلى الله عليه ، وسلم !

3 " قَالَ عُرْوَةُ : (...) إِنَّا (...) قَالَ أَبُو الْحَكَمِ : فَتَسْقِيكَ (...) " .

التي اسْتَأْنَفَ فِيهَا جُمْلَةً " تَسْقِيكَ (...) " بالفاء ، عن جملة " إِنَّا " ، ومصدرهما واضحان .

4 " قَالَ عُرْوَةُ : (...) قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ : وَأَلَا حَ (...) " .

التي عطف فيها جملة " أَلَا حَ (...) " بالواو ، على جملة " قَالَ عُرْوَةُ : (...) " ، وكلتاها من كلام عمر نفسه الراوي الوحيد .

5 " قَالَ لَهَا : اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي فَقَالَتْ : وَمَا ثُبَالِي (...) " .

التي استأنف فيها جملة " ما ثُبَالِي (...) " بالواو ، عن جملة " اصْبِرِي " ، وأولاهما من كلام رسول الله - صلى الله عليه ، وسلم - والأخيرة من كلام المرأة الباكية .

إن الاستئناف عن الجملة مثل العطف عليها ، وجه من ربط أخيرتهما بالأولى في نسيج النص الواحد ، مهما يكن اختلاف المجاورة التي في الاستئناف والمداخلة التي في العطف 47 .

ثم إن من طبيعة الحوار الحي ، أن تتوالى الجمل فيه بما يلائمها من وجوه الربط وأدواته المختلفة (العطف وأدواته ، والاستئناف وأدواته ، ...) ، وسواء أُنُوِّلَتْ تلك الجمل من طرف واحد من أطراف الحوار ، أم من أكثر من طرف : فمن ثم كان حِرْصُ الكَاتِبِينَ على تلك الأدوات ، وَجْهًا مِنْ نَفْخِ روح الحياة الطبيعية في نصيهما ، على حين يتناساها كثير من كتاب اللغة العربية إذا أقبلوا يسجلون ذلك الحوار الحي ، وكأن كل طرف من أطرافه يُكَلِّمُ نفسه !

ثم إن لمنهج كل من الكاتبين في نسج نصه ، لأثرا : فعلى حين وقع العطف على ما تَقَدَّمَ ، والاستئناف عنه ، في كلام طرف رافعي واحد في أكثر العبارات السابقة ، لاشتغال الرافعي بتحليل الأشخاص والأحداث كما سبق - وقع العطف على ما تَقَدَّمَ ، والاستئناف عنه في كلام أكثر من طرف شاكري في أكثر العبارات السابقة ، لاشتغال شاكر بتحريك الأشخاص والأحداث ، كما سبق .

عَظْفُ الْمُتَشَابِهَاتِ

[14] إذا تَبَعْنَا عند الرافعي تراكيب العطف ، وجدنا هذه العبارات :

- 2 " قَارَبَهَا ، أَوْ لَا مَسَهَا .
- 3 " اتَّصَلَ بِهَا ، أَوْ صَاحَبَهَا .
- 4 " قَتَلَهُمْ صَبْرًا ، أَوْ مَاتُوا فِي سَبْحِهِ .
- التي عطف فيها جملاً فعلية ماضوية بالواو " أو " ، على مثلها .
- 5 " يَخْرِقُ الْعَادَةَ ، وَيَخْرِجُ عَنِ النَّسَقِ " .
- 6 " يَجُورُ ، وَيَعْسِفُ " .
- 7 " يُزْمَجِرُ ، وَيَزَارُ " .
- 8 " لَا يَنْظُرُ إِلَى الْأَسَدِ ، وَلَا يَحْفِلُ بِهِ " .
- التي عطف فيها جملاً فعلية مضارعية بالواو ، على مثلها .
- 9 " بِعِبَادَتِهِ ، وَزُهْدِهِ " .
- 10 " فِي شَهَوَاتِ الْحَيَاةِ ، وَأَبَاطِيلِهَا " .
- 11 " مَصَالِحِهِ ، وَمَنَافِعِهِ " .
- 12 " صِحَّةُ وُجُودِهَا ، وَكَمَالُ مَنَفَعَتِهَا " .
- التي عطف فيها مركبات إضافية بالواو ، على مثلها .
- 13 " الزُّهَادُ ، وَأَهْلُ الْوَرَعِ " .
- 14 " غِيْضَةٍ ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ " .
- اللتين عطف فيهما مركبتين إضافيتين بالواو " أو " ، على مفردين .
- 15 " كَالشَّمْعَةِ وَالشَّمْعَةِ " .
- 16 " زُهْدًا ، وَتَوَرُّعًا " .
- 17 " الْفَرْعَ ، وَالرُّعْبَ ، وَالْإِشْفَاقَ " .
- 18 " أَقْرَبَ ، وَأَيْسَرَ " .
- 19 " الْهُوَامَ ، وَالذَّرَّ " .

التي عطف فيها المفردات بالواو ، على أمثالها ، حتى عطف المفرد

على نفسه في ظاهر عبارته الأولى !

• وإذا تَبَيَّنَها كذلك عند شاكر ، وجدنا هذه العبارات :

1 " أَكَلْتُ مِنِّي السَّنُّ وَتَعَرَّقْتُني أَثْيَابُ الْكِبَرِ " .

2 " بَرَقَ وَجْهُهُ وَتَوَقَّدَ " .

3 " مَا تَضَوَّرَ وَجْهُهُ وَلَا تَقَبَّضَ " .

4 " فَارَ الدَّمُ مِنْهَا وَتَفَجَّرَ " .

5 " تَحَلَّقَ النَّاسُ حَوَالَيْنَا وَتَكَنَّفُونَا " .

6 " قَدِرَ اخْتِطَفَهُ أَجَلُهُ فَجَذَبَهُ فَهَوَى بِهِ " .

7 " وَقَانِي أذاها فاحْتَمَلَ عَنِّي أَلَمُهَا " .

8 " قَدْ نَجِدَ فَتَضَحَّ وَجْهُهُ بِالْعَرَقِ " .

التي عطف فيها جملاً فعلية ماضوية بالواو والفاء ، على مثلها .

9 " نَعَبْتُ وَلَهُوَ " .

10 " يُوَاوِسُونَهُ وَيُصْبِرُونَهُ " .

11 " يُثَبِّتُهُ وَيُسَكِّنُهُ وَيَنْفُضُ عَنْهُ الْجَزَعَ " .

التي عطف فيها جملاً فعلية مضارعية بالواو ، على مثلها .

12 " لَا يَنْفَعُ الْقَطْعُ وَلَا الْبَتْرُ " .

13 " لَا تَكُونُ عَلَيْهِ نَائِحَةً وَلَا مُعَوْلَةً " .

اللتين عطف فيهما مفردين بالواو ، على مثليهما .

لن يستغني الصراع القصصي عن عطف الأحداث والأعيان والصفات ، كل منها بعضه على بعض ، على وجوه العطف المختلفة . ولقد جرى شاكر مجرى الرفاعي ، في عطف متشابهات الأحداث والأعيان والصفات ، التي لا يَعْلَمُ فَرْقَ ما بَيْنَها كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَلَقِّينَ ، تَبْيِهَا على الفروق اللغوية التفكيرية ، تَحْقِيقاً للثقافة العربية الإسلامية في نفسها ، ثم تَمَسَّرَ لها من غيرها من الثقافات .

ويزيد عطف المتشابهات سطوعاً، مُوازِنَتُها أي أن تتفق أوزان المتشابهات - إن كانت مفردات - أو عناصرها - إن كانت مركبات - وسواء أكانت مسجوعة أم لا ؛ فمن ثم كانت الموازنة ظاهرة بديعية أخص من السجع 48 ، مثلما في عبارات الرافعي السابقات (2 ، 11 ، 18) ، وفي مثل عبارتي شاكر السابقتين (11 ، 12) 49 - فإن المتشابهات إذا توازنت أغرت المتلقي بالإسراع إلى الحكم عليها بالاتحاد (أن المتعاطفين شيء واحد) ، حتى إذا ما تأملها فاجأته باختلافها ؛ فكَانَتْ أشد تأثيراً فيه .

ولقد احتفى بذلك الرافعي أكثر من شاكر ، حتى استعمله في خمسة أنواع من التراكيب ، وَضَحْتُها بما سبق من تَمْيِيز وتَعْلِيق ، ولم يستعمله شاكر إلا في ثلاثة فقط . ثم على حين اجتماع الرافعي وشاكر على استعمال الواو ، اختلفا في "أو" والفاء ؛ فاستعمل الرافعي "أو" ، واستعمل شاكر الفاء ، وجرى كل منهما على ما يلائم منهجه ؛ فاستفاد الرافعي مما في "أو" من إبهام في تحليل تلك المتشابهات ، واستفاد شاكر مما في الفاء من ترتيب وتعقيب 50 ، في تحريك تلك المتشابهات على حالها ، فأما إبهامها فيزيدها تشابهاً ، وأما إسراع تحريكها فلا يتيح للمتلقي أن يتأملها !

من ذلك مثلاً عبارة الرافعي الرابعة ؛ فلقد أراد أن يحلل طبيعة البطش في أحمد بن طولون ؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين قتله خصومه صبرا (قَصْدُهُ سَجْنُهُمْ حتى يهلكوا) ، وموت خصومه في سجنه (إِهْمَالُهُ لهُمْ فيه حتى يهلكوا) ، ومن عطف جملتيهما بـ "أو" الإبهامية - وعبارة شاكر السادسة ؛ فلقد أراد أن يصور حرص الموت على الشاب النبيل ؛ فاستفاد من الفرق اللطيف بين اختطاف الشيء (أخذه سريعاً) ، وجذبه (مده) ، والهوي به (إسقاطه) ، ومن عطف جملها بالفاء الترتيبية التعقيبية .

وعبارة الرفاعي الخامسة عشرة ، دليل زيادة حفاظته بعطف المتشابهات : فقد حذف من كلا المعطوفين صفتيهما : (الكبيرة) ، و (الصغيرة) المفهوميتين مما بعد 51 ، وترك المتلقي يعجب لارتكابه هذا الحذف الذي أفضى إلى عطف كلمة على مثلها أي إلى أفراد ما يَنْبَغِي تَثْنِيَّتُهُ ، حَفَاوَةً منه بعطف المتشابهات كما سبق ، وإمعانا في الموازنة .

تَرْكِيْبُ الْمُفْجَاجَةِ

[15] إذا تَبَعْنَا عند الرفاعي " إذا " الفجائية ، عثرنا على هاتين العبارتين :

1 " فَإِذَا هِيَ الْوُثِيْقَةُ الضَّائِعَةُ " .

2 " فَإِذَا هُوَ سَاهِمٌ مُفَكَّرٌ " .

اللتين اقترنت فيهما " إذا " بالفاء ، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة .

● وإذا تَبَعْنَاها كذلك عند شاكر ، وجدنا هذه العبارات :

1 " وَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ سَاجٍ " .

التي اقترنت فيها " إذا " بالواو ، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها ضمير غيبة .

2 " وَإِذَا طَائِرٌ يَحُومٌ " .

التي اقترنت فيها " إذا " بالواو ، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها نكرة .

3 " وَإِذَا زَيْنُ الْمَوَاكِبِ تَحْتَ سَنَابِكِهَا " .

4 " وَإِذَا فِيهِمْ سُلَيْمَانٌ " .

5 " وَإِذَا عُرْوَةٌ كَأَنَّ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ " .

6 " وَإِذَا عُرْوَةٌ قَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ " .

التي اقترنت فيها " إذا " بالواو ، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها علم .

7 " مَاذَا مُحَمَّدُ النَّاسِ قَدْ حَلَسَهُ الدُّعْوَةُ " .

8 " وَإِذَا وَجَّهَهُ قَدْ صَفَرَ مِنَ الدَّمِّ " .

اللتين اقترنت فيهما " إذا " بالواو ، ودخلت على جملة اسمية مبتدؤها مضاف إلى معرفة .

إن المضاجأة أسلوب مهم من أساليب تنمية صراع الأشخاص الذي لا تستغني عنه قصة ، غير بعيد من أسلوب التعقيب السابق ذكره : ومن ثم مال إليه شاكر المولع بتحريك الأشخاص والأحداث ، أكثر من الرافعي المولع بتحليلهما ، حتى استعمله في أربعة أنواع من التراكيب وضَّحَّتها بما سبق من تمييز وتعليق ، ولم يستعمله الرافعي إلا في نوع واحد فقط .

وأعجب ما في العبارات السابقة ، اقتران " إذا " بالفاء في عبارتي الرافعي كليتهما على قلتها ، واقترانها بالواو في عبارات شاكر الثماني كلها ! ولكن إذا تأملنا سياق كل عبارة ، وجدنا الواو هي المستعملة فيما قبل عبارتي الرافعي كليتهما ، والفاء هي المستعملة فيما قبل شاكر الأربع (3، 5، 6، 7) ، وقبل الجملتين المقترنتين بـ " إذا " الفجائية نفسها ، اللتين قبل عبارتيه (4 ، 8) : فمن ثم يكون كل من الكاتبين قد جهَّز التركيب من قبل مجيء " إذا " : حتى تطمئن في مكانها ، إحساساً خاصاً واحداً ، اجتمع عليه الأستاذ والتلميذ .

الإجمال ثم التفصيل

[6] إذا تتبعنا عند الرافعي ، أطراف الجمل المتوالية ، وجدنا هذه العبارات :

- 1 " كَانَ يَوْمُهُ كَالْبُرْهَانِ (...) : مَا بَقِيَ أَحَدٌ إِلَّا (...) " .
- 2 " جَعَلْتُ أَفْكَرُ فِي طَعْمِ النَّفْسِ : مَا هُوَ " .
- 3 " لَهُ مَعْنَى أَبُوَّةِ الْآبِ فِي أَبْنَائِهِ : لَا يَرَاهُ مَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ (...) " .
- 4 " ثَعَالُ أَحَدُثُكَ الْحَدِيثَ : كَانَ أَحْمَدُ (...) " .

التي قدم فيها جملاً إجماليةً ، ثم أبدلَ منها جملاً تفصيليةً .

6 " كَانَ عَقْلُهُ مِنْ أَثَرِ طَبِيعَتَيْهِ (...) : فَلَهُ يَدٌ مَعَ الْمَلَائِكَةِ (...) " .

7 " لَمْ يَرُعْنَا إِلَّا ذُھُولَ الْأَسَدِ عَنْ وَحْشِيَّتِهِ : فَأَقْعَى عَلَى ذَنْبِهِ (...) " .

8 " يَكْشِفُ لَهُ عَنْ قُرْبِ الْحَقِّ (...) : فَهُوَ لَيْسَ بَيْنَ يَدَيِ الْأَسَدِ (...) " .

9 " كَمَا خَرَجَ الشَّيْخُ (...) خَرَجَ الْوَحْشُ (...) : فَلَيْسَ فِي الرَّجُلِ (...) " .

10 " جَعَلَ كُلُّ مَنَا يَظُنُّ (...) : فَمِنْ قَائِلٍ (...) " .

التي قدم فيها جملاً إجماليةً ، ثم عطفَ عليها جملاً تفصيليةً .

• وإذا تَبَعْنَاها كذلك عند شاكر ، وجدنا هذه العبارات :

1 " مَا نَرَى - وَاللَّهِ - مُحَمَّداً : قَدْ اخْتَطَفَهُ أَجَلُهُ (...) " .

التي قدم فيها جملةً إجماليةً ، ثم أبدلَ منها جملةً تفصيليةً .

2 " إِنِّي - وَاللَّهِ - مُحَدِّثُكَ عَنِّي بِخَبْرِي (..) : فَقَدْ بَتُّ (...) " .

التي قدم فيها جملةً إجماليةً ، ثم عطفَ عليها جملةً تفصيليةً .

في الإجمال إغماض ، ثم في التفصيل إيضاح ، ولكن لا سبيل إلى

اكتشاف الإجمال وإغماضه إلا بعد الفراغ من التفصيل وإيضاحه : فإن

المتلقي لا يستطيع أن يميز ذلك حتى يأتيه هذا ، وعندئذ يحتاج إلى أن

يعود مرة أخرى إلى الإجمال الذي لم ينتبه إلى أنه إجمال ، ليحسن فهمه

وربطه بتفصيله بعد أن انتبه إلى أنه تفصيل 52 1

وإن عطف التفصيل بالفاء على الإجمال 53 ، لأشد ثقلًا على

المتلقي من إبداله منه ؛ فإنه يَظُنُّ في الجملة المقترنة بالفاء كُلُّ ظَنٍّ ، حتى

يَتَبَيَّنَ أنها تفصيلٌ ذلك الإجمال ، فأما الإبدال فأقرب وجوه التفصيل :

فمن ثم يظهر وجه ميل الرفاعي إلى الإجمال والتفصيل المناسبين لمنهجه

أكثر من شاكر ، وإن انقسمت العبارتان الواقعتان لشاكر منه ، على

الإحالات :

1 استقرت أعلام نص الرافعي في نصه وفيما أفهم من الثقافة العربية الإسلامية جميعا معا : فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي :

المجموع	حالاتها الإعرابية			معانيها	أعلام الرافعي	
	الرفع	النصب	الجر			
16 (25%)	7	2	7	العقيدة	الله	1
16 (25%)	11	6	1	السلطان	أحمد بن طولون	2
	3	1			خمارويه بن أحمد	
	1	1			المأمون	
	1				نوح بن أسد	
15 (24%)	5			الزهد	أحمد بن محمد	3
	5	3	1		بنان	
	2	2			بكار بن قتيبة	
	2	2			الجنيد	
	1	1			يوسف بن الحسن	
14 (22%)	5	5		العز	مصر	4
	3	3			بغداد	
	2	2			الري والجبال	
	2	2			طرسوس	
	1		1		أنطاكية	
	1	1			بخارى	
1 (2%)		1		العلم	أحمد بن عبد الله	5
1 (2%)			1	الذل	طولون	6
63	36	6	21	المجموع		

2 كذلك فعلت بأعلام نص شاكر : فكان تصنيفها على النحو المجدول التالي :

المجموع	حالاتها الإعرابية			معانيها	أعلام شاكر
	الرفع	النصب	الجر		

(42%)	7		5	2		رسول الله	
	2		2			أبو بكر	
	1			1		أسماء بنت أبي بكر	
	1			1		الزبير بن العوام	
37 (19%)	35	10	15	10	الزهد	عروة بن الزبير	2
	2		2			أبو صعصعة	
26 (13%)	25	3	11	11	السلطان	أمير المؤمنين	3
	1			1		سليمان بن عبد الملك	
16 (8%)			4	12	الحرية	أبو الحكم	4
14 (7%)			10	4	الغزل	عمر بن أبي ربيعة	5
14 (7%)	10	1	2	7	الفتوة	محمد بن عروة	6
	3		1	2		هشام بن عروة	
	1			1		عبد الله بن عبد الله	
3 (2%)				3	العدل	عمر بن عبد العزيز	7
1 (1%)				1	الهمة	القاسم بن محمد	8
1 (1%)		1			العز	المدينة	9
193		51	56	86	المجموع		

3 الرضي : 131/2 - 132 . 4 ابن منظور : علم .

5 يستفاد ذلك من مقدمة الأستاذ محمد سعيد العريان ، لـ " وحي القلم " .

6 يستفاد ذلك من تأريخ الدكتور عادل سليمان جمال ، للمقالات التي جمعها .

7 ابن مالك : 117 .

8 الجرجاني : 243 : فقد شرح القانون المتصرف في وجوه عطف الجمل واستئنافها .

9 العلوي : 38/3 ، وإن لم يستوعب أنواع الموازنة التي أجملتها كلها ، ونبه على ذلك

10 قد أحصيت من الموازنة للرافعي تسعا وعشرين عبارة ، ولشاكر عشرين ، من مثل ما

نُبهت عليه ، وهي لا تنحصر بين المعطوف والمعطوف عليه ، بل تكون بين المنعوت

والمنعوت ، والمشبّه والمشبّه به على وجه مختلف من التكب ، ومن الحمل ، المتحاورة

- 11 ابن مالك : 351/3 ، 357 .
- 12 ابن جني : 370/2 - 371 ، وهو عنده من شجاعة العربية .
- 13 العلوي : 407/2 : فقد ذكر " الإجمال والتفصيل " و " اللف والنشر " ، ذكرنا واحدا من بعد أن جعل " اللف والنشر " ، هو الصنف السادس من صنوف " الفصاحة اللفظية " ، التي جعلها النمط الأول من البديع - ثم جعل " الإجمال والتفصيل = اللف والنشر " ، " يُطْلَقُ اتِّكَالًا عَلَى قَرِيحَةِ السَّامِعِ فِي رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى مَا يَلِيْقُ بِهِ " . وإنما " اللف والنشر " على ما شرح العلوي ومثّل ، وَجْهٌ مِنْ " الإجمال والتفصيل " .
- 14 ابن مالك : 351/3 : فقد نبه على اختصاص الفاء بعطف المفصل على المجرم .

